

أسلوب الهجاء في العصر المملوكي (دراسة تحليلية في مضامينه وجمالياته الدلالية)

جهانگیر أمیری^١، شهریار همتی^٢، زینب جلیلیان^٣

١ و ٢. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وأدائها بجامعة رازي، کرمانشاه

٣. ماجستير، قسم اللغة العربية وأدائها بجامعة رازي، کرمانشاه

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٦/١/١٧؛ تاريخ القبول: ٢٠١٦/٦/٥)

الملخص

يحظى الهجاء في العصر المملوكي بمكانة فريدة وأهمية بالغة. لقد تأثر هذا الفن بالمؤثرات السياسية والاجتماعية العامة في تلك الفترة بالذات أكسبته طابعاً سياسياً واجتماعياً بعد أن كان له طابع فردي في الأدوار السابقة. ينتقد الهجاء المملوكي بطبيعة دوره في تلك الحقبة ما يجري على ساحة الحياة وما يصدر من رجال الحكم ونخبة المجتمع من الأمرء والقضاة والأطباء وغير ذلك من الذين يتولون مقاليد الأمور ويتحكمون بمصير الشعب. يتمتع الهجاء المملوكي بجماليات دلالية راقية من أبرزها أنه قد يكون مصحوباً بالنقد اللاذع تارةً وبالفكاهة المريرة تارةً أخرى. ثم أنه زاخر بالإيحاءات القرآنية التي ترتقي بمستواه الدلالي والجمالي هذا وأن هذه الدراسة ترمي إلى رصد جماليات الهجاء المملوكي الدلالية مستعيناً بالنماذج الشعرية المتماشية مع سياق الموضوع وبالاعتماد على المنهج الوصفي- التحليلي ومن أبرز نتائج هذا البحث: الهجاء المملوكي في الأغلب يُعنى بالقضايا الجارية على ساحة الحياة والأحداث السياسية والاجتماعية السائدة؛ ويشوبه في كثير من الأحيان نبرة فكاهية ولغة ساخرة تخفف من وطأته ووخزه الأليم. يميل الهجاء المملوكي كثيراً ما إلى العتاب والشكوى وذلك لخلوه من السب والاستهجان وعدم تناوله للأعراض والعيوب الجسدية والعاهات الخلقية.

الكلمات الرئيسية

العصر المملوكي، الأوضاع السياسية والاجتماعية، الهجاء الساخر، العتاب والشكوى، مضامين الهجاء وجمالياته.

مقدمة

لغة الهجاء تعني الشتم والسبّ والذمّ وما يغيّر المدح وأما اصطلاحاً فهي عبارة عن: «تناول الشاعر لعيوب المهجو بشيء من الوخز واللذعة» (ابن منظور، ١٩٧٥: ٥١٧/٤). فإنّ الهجاء لونٌ من الشعر الوجداني تتوقّر فيه عناصر من النقد اللاذع والسخرية تختلف مقوماته باختلاف شخصية الشاعر والأهداف التي تكمن وراء الهجاء (ناصر، ١٩٩٢: ١٢٢). ظلّ الهجاء في العصرين الجاهلي والأموي مشحوناً بالسبّ والألفاظ البذيئة والنيل من أعراض المهجو والازدراء بالعاهات الجسدية (عطوان، ١٩٩٧: ٦٧). كما أنّ الشاعر الهجاء في العصر العباسي كان يسخر من العيوب الخلقية فضلاً عن سخريته من العيوب الظاهرية للمهجو (ضيف، ١٩٨٥: ٢١٣). فما إن دخل الهجاء في الطور المملوكي حتّى أخذ منحىً جديداً فالشعراء كرّسوا جلّ اهتمامهم في القضايا الاجتماعية والسياسية وتجنّبوا هجاء الأشخاص إلى حدّ كبير (أميري، ١٣٩٢: ١٦٥). لم يغب الهجاء الساخر عن الساحة في العصر العباسي لكنّه جاء في نطاق أصغر وأضيق ممّا هو في العصر المملوكي قلباً وقالباً. فالعصر المملوكي يُعدّ أرضاً خصبةً أنجبت الهجاء السياسي والبيئيّة التي تقدّم وازدهر فيها هذا اللون من الهجاء ممّا زاد من أهميّة الهجاء في الحقبة المملوكية وقيّمته أنّه يهتم بما يمسّ واقع الحياة من قضايا سياسية واجتماعية. أضف إلى ذلك أنّ الهجاء المملوكي اندمج مع عنصر الفكاهة والسخرية ممّا أضفى عليه طابعاً تنفيسياً وترفيهيّاً إلى جانب طابعه السياسي والاجتماعي (عبد اللطيف، ١٩٤٧: ٢١١). مزج الفكاهة بالهجاء في ذلك العصر خفّف من حدّته ولذعته عند المهجو. على أيّة حال فإنّ الهجاء في تلك الآونة غادر البيئات الضيقة التي كان يعيش فيها سابقاً ودخل في ساحة الحياة الاجتماعية الرحبة واتسع نطاق وظائفه كغرض شعري وأصبح مصدراً صالحاً لمطالعة الأوضاع العامة فإذا أردت الوقوف على ما يجري على الساحة الاجتماعية في العصر العباسي مثلاً فإنّ الشعر العباسي بكلّ فنونه وأغراضه لا يمثّل القضايا السياسية والاجتماعية بقدر ما يمثّل حياة البذخ والتّرف للملوك والخلفاء داخل القصور الفخمة والمزدانة (عطوان، ١٩٩٧: ١١١). لكنّ الملوك والأمراء في العصر المملوكي أصبحوا هدفاً للهجاء بعد أن كانوا موضع اهتمام واحترام في العصور الماضية وخاصة العصر العباسي (مختار، ١٩٩١: ٢٠٦). أمّا الأسئلة التي تريد هذه الدراسة الإجابة عليها فهي كالتالي:

١- ما هي العوامل والأسباب المؤثرة على الهجاء في العصر المملوكي؟

٢- ما هي أهمّ المكوّنات الدلالية للهجاء في ذلك العصر؟

٣- ما هي أبرز الجماليات في النطاق المضموني للهجاء المملوكي؟

وأما بالنسبة لخلفية البحث فقد راجعنا لإعداد هذا البحث المتواضع مقالات وكتب ترتبط بشكل أو بآخر بالهجاء في الأدوار المختلفة نستعرض أبرزها فيما يلي:

من الكتب: أروع ما قيل في الهجاء لأميل ناصيف الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام لمحمد حسين، «الشعر العربي أيام المماليك ومن عاصرهم من ذوي السلطان» لخالد إبراهيم يوسف، «مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني» لشيخ أمين بكري، «الأدب في العصر المملوكي» لمحمد زغلول سلام، «تأريخ الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني» لجهانغير أميري. من الأطروحات الجامعية:

«فنّ عتاب وشكوى در عصر مملوكي با تكيه بر مرثي ابن نباته» «ابن نباتة نموذجاً» لفريبا أميري (١٣٨٨هـ) الجامعة الإسلامية الحرّة مدينة كرمانشاه، «رويكردي جامعه شناختي بر شعر انحطاط» (دراسة شعر الانحطاط على ضوء علم الاجتماع) لپروانه ستايش نيا (١٣٨٩هـ) جامعة رازي، «بررسی مضامین طنز در شعر شاعران برجسته عصر مملوكي» (دراسة مضمونية لشعر الفكاهة في العصر المملوكي) لمرضيه محمدي درخشش (١٣٩١هـ)، جامعة رازي، «هجاء وتطور آن در دوره جاهلي و صدر اسلام» لحبيب كشاورز (١٣٨٧هـ)، جامعة طهران.

كما يبدو أنّ الأطروحات التي مرّ ذكرها لم تشتمل على دراسة مستقلة تتعلق بالهجاء ولكنها مع ذلك تحمل في طياتها معلومات مفيدة قيمة حول الأدب المملوكي ومقوماته والأوضاع العامة السائدة على العصر استفدنا منها كثيراً خاصة وأنّ هناك جذوراً مشتركة للهجاء والفكاهة والشكوى في العصر المملوكي درسناها بشيء من التحليل في مقالنا هذا وفيما يتعلّق بالأطروحة الأخيرة فإنّها قامت بدراسة فنّ الهجاء في العصرين الجاهلي والإسلام فلم تتطرق بطبيعة الحال إلى الهجاء المملوكي الذي نحن نعالج قضاياها في هذا البحث.

من المقالات:

«التوظيف السياسي والاجتماعي للفكاهة في العصر المملوكي» (دراسة وتحليل)، لجهانغير

أميري، مجلة إضاءات نقدية (فصلية محكمة)، العدد السابع عشر، ٢٠١٥م. عنيت هذه الدراسة بالدور السياسي والاجتماعي الذي لعبته الفكاهاة في العصر المملوكي وبما أن ثمة علاقة وطيدة بين الفكاهاة والهجاء في ذلك العصر أخذنا منه ما نحتاج إليه لإثراء البحث.

«التحامق في العصر المملوكي» (دراسة وتحليل)، لجهانكير أميري، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، العدد ٢٢، ١٣٩١هـ يحتوي هذا المقال على دراسة موسعة للتحامق وهو لون خاص من أنواع الفكاهاة في العصر المملوكي وبما أن ثمة جسراً يربط بين الفكاهاة والهجاء في ذلك العصر إذ لا بد من الاستفادة من هذا المقال الذي عالج موضوع الفكاهاة بدقّة متناهية وعناية فائقة.

الدراسات السّابقة بمجملها تشتمل على دراسات عامة حول الهجاء في مختلف العصور إلّا أنّها لم تتطرق إلى الهجاء المملوكي وما يلزم دراسته من المؤثرات والمقومات والدلالات والجماليات الشعرية فتبقى الحاجة إلى دراسة مستقلة تختص بالهجاء في العصر المملوكي قائمة حاولنا تلبيتها في مقالنا هذا. لا شك أن الآثار المذكورة تواءم تتضمن معلومات مفيدة قيّمة استقينها من منهلها حتى الارتواء.

دراسة الموضوع

لمحة إلى الحياة السياسية والاجتماعية في العصر المملوكي

بما أن للحياة السياسية والاجتماعية في الطور المملوكي دورها وأثرها على الهجاء لذا يتحتم علينا أن نسلط الأضواء على هذا الجانب من الحياة في تلك الآونة وباختصار شديد البتّة. السلسلة التي قامت على أنقاض الدولة الأيوبية سميت بالدولة المملوكية نسبة إلى المماليك وهم طائفة من العبيد وقعوا في أسر الأيوبيين في المعارك التي دارت بينهم وبين الصليبيين الإفرنج فجيء بهم إلى الممالك الخاضعة تحت حكم الأيوبيين وهما مصر والشام (الخفاجي، ١٩٩٠: ٥٧). وبما أن المماليك كانوا يجيدون أساليب القتال والفروسية ويتمتعون بقدرات جسدية هائلة زجّ بهم في الجيش وولّوا مهاماً عسكرية هامة (بكري، ١٩٨٠: ١٣٢). فسرعان ما خطر شأنهم واستحفل أمرهم وقويت شوكتهم فأطاحوا بالحكم الأيوبي ودشّنوا الحكم المملوكي (الركابي، ١٩٩٦: ٨٧). وجعلوا الذود عن التراث الإسلامي العربي نصب أعينهم وصبّوا مجهودهم كلّ في الحفاظ على الدولة التي أخذت على عاتقها حماية الثقافة

الإسلامية ونشر لغة الضاد وسط تلك الأوضاع الرهيبة والظروف الصعبة بعزيمة لا تعرف الفتور والكلل (إبراهيم حسن، ١٩٤٨: ٧٠). وفي السياق نفسه أن الدولة المملوكية كانت مهددة بالأخطار التي أحاطت بها عن أيمانها وعن شمائلها. علاوة على الفتن والاضطرابات التي عانتها دولة المماليك كان الصليبيون غرباً والمغول شرقاً يهجمون عليها. يحلم الصليبيون في حروبهم ضد المماليك باستعادة البيت المقدس وضمها إلى المملكة الإفرنجية ولا يخفى ما لبيت المقدس من مكانة تاريخية ودلالة رمزية ما حث الإفرنج على انتزاعها من أيدي المماليك ليل نهار. من ناحية أخرى «كان المغول والتتر والغزاة الأجانب يطمحون إلى فتح مصر والشام لإشباع نهمهم وإرضاء جشعهم في التوسع من رقعة الفتوح والاستيلاء على دولة المماليك» (أسعد طلس، ١٩٥٧: ٢٠٩). زاد المماليك عن حماهم على قدم وساق حيث تمكنوا من التصدي لهجمات الأعداء وحققوا انتصارات باهرة زادت من شعبيتهم عند جماهير الشعب وترددت أصداءها في أشعار الشعراء (باشا، ١٩٨٩: ٨٩). إلا أن نفقات الحروب كانت باهظة ومكلفة للحكومة مما جعل المماليك يفرضون ضرائب مثقلة على كاهل الشعب تمويلاً للحروب. لم تكن معاناة الشعب تنتهي عند هذا الحد إذ كانت «الكوارث الطبيعية من الفيضانات والزلازل والمجاعة والقحط والأوبئة تجرّع أحاد الشعب كؤوس المرارة والشقاء وتحول حياتهم إلى ظلام دامس» (أميري، ٢٠١٢: ٢٥). المصائب الطبيعية والحروب الطاحنة التي كان يمر بها المجتمع المملوكي جعلت الحياة للناس قاسية جداً. انعكست هذه الكوارث وتداعياتها المؤلمة في حياة الشعب سلباً فانتشرت القبائح والردائل بين الناس وانحطت المثل والقيم وتدنت أخلاق العامة ودب الفساد في هيكل الحكومة ديب السوس في العظام (باشا، ١٩٨٩: ٣٦٨). أصبحت تلقي الرشاوى والظلم والخداع وسرقة المال العام أمراً عادياً ومألوفاً بين الحكام والأمراء والقضاة وعمال الحكم والكتّاب وجباة الضرائب ما أدى إلى توغل الظلم والفساد بين رجال الحكم وكذلك في أرجاء البلاد (إبراهيم حسن، ١٩٤٨: ١٨١). وكان الشعراء بما فيهم شعراء الهجاء يصورون ما يجدونه من مظاهر الفساد والاضطهاد والخيانة بأشعارهم تصويراً صادقاً. كان شعراء الهجاء يوظفون هذا الفن اهتمام الهجاء بما يجري على الساحات السياسية والاجتماعية منح هذا اللون الشعري رواجاً وازدهاراً غير مسبوق مما أضفى عليه طابعاً سياسياً واجتماعياً (إبراهيم يوسف، ٢٠٠٢: ١٧٥). ليس الهجاء السياسي مقتصرًا على الحقبة المملوكية طبعاً ولكن الهجاء السياسي والاجتماعي في تلك الحقبة بلغ ذروته وأصبح في حالة متميزة لا تضاهى. فإنك لو

نظرتَ في أيّ ديوان شعري لذلك العصر لوجدت فيه نماذج متعدّدة رائعة للهجاء الذي يتناول جوانب مختلفة للحياة آنذاك. هذا الرواج والازدهار له أسباب ودوافع عديدة ربّما من أهمّها انطلاق طائر الشعر من نطاقه الضيق وقفصه الخائق في ذلك العصر (زغلول سلام، ١٩٨٥: ٢٤١). وللهجاء في الطور المملوكي خصائص ومميّزات عدّة سوف نتطرّق إليها في موضعه إن شاء الله. وختاماً لأبد من أن نشير إلى أنّ السبب الذي دفعنا إلى عدم التركيز على شاعر واحد دون غيره لدراسة الهجاء المملوكي هو أنّ الاختصار على الشاعر الواحد مهما كان كثير الإنتاج في هذا الحقب كان يحول دون رسمنا لصورة شاملة متكاملة عن هجاء العصر فإنّنا مهما بحثنا لم نعثر على شاعر مملوكي يتضمن ديوانه الشعرية كافة أنواع الهجاء وإذ نحن أردنا إعداد دراسة تتسم بالشمولية والاستقصاء تتناول مختلف نماذج الهجاء على الصعيد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والديني كما يراه القارئ الكريم في هذا المقال لذلك رأينا أنّه حريّ بنا أن نقطف أزهارا متفتحة ونجني ثمارا ناضجة من مجاني الدواوين الشعرية التي أنبتتها الأرض المملوكية الخصبة.

ملامح الهجاء في العصر المملوكي وأسباب شيوعه

ابتعد الشعر عامة والهجاء خاصة عن القصور الملكية الضخمة في الحقبة المملوكية وانصهر في بوتقة الحياة الاجتماعية آخذاً الطابع الشعبي. ومن ثمّ اكتسى الهجاء المملوكي طابعا سياسيا واجتماعيا عاكساً أبرز ما يجري على ساحة المجتمع من الأحداث الهامة مصوراً ما حلّ بالبلاد من المصائب والمأساة (ضيف، ١٩٩١: ١٦٤). راح شعراء الهجاء يوظفون هذا النمط الشعري كآلية ملائمة لنقد الأوضاع السياسية والاجتماعية خلّفت وراءها مصائب وآلام لا تطاق (الفاخوري، ١٩٨٦: ٤٠٧). الهجاء المملوكي يكاد يكون صرخة احتجاجية ناثرة انبثقت عن مشاعر السخط والغضب فكأنّها بركان متفجّر انتشرت نيرانه وحممه في كلّ الأرجاء. من هذا المنطلق يمكن القول إنّ الهجاء في ذلك العصر «يجسد كلّ ما تمرّ به الحياة المملوكية من آلام وآمال ولذلك يعدّ مصدراً صالحاً نطالع فيه الظروف الصعبة والأحوال المزرية التي يعانيتها الشعب في ذلك الوسط العسيب» (باشا، ١٩٨٩: ١١٧).

دخل الهجاء في العصر المملوكي في طور جديد لم نعهده في الأدوار السابقة. فإنّه أصبح شأن سائر الأغراض في هذا العصر حرّاً طليقاً بعد أن كان محصوراً داخل القصور والحانات وما إن دخل هذا الغرض الشعري ساحة الحياة الاجتماعية حتّى أهوى بسياط النقد واللوم

على كل من يحمل مسؤولية الفقر والجوع المميت بين أبناء الشعب (زيدان، ١٩٨٣: ٣/١١٧). كما أدان الهجاء المملوكي الرذائل المتفشية بين من أحاد المجتمع. ربّما لم نعدُ الحقّ إذا قلنا بأنّ الشاعر الهاجّي فعل في تلك الآونة ما يفعله أصحاب الصحافة في عصرنا الراهن حيث أخذ معه عدسته وصورّ بها ما يشاهده من حياة البؤس والشقاء. نستنبط ممّا مضى أنّ الهجاء في البيئّة المملوكية فقد شكّله الفردي وحمل في أغلب الأحوال شكلاً جماعياً. فتحوّل الهجاء الشخصي في ذلك العصر إلى هجاء الساسة ورجال الحكومة وولاة الشعب وكلّ من تقع على كاهله مسئولية إدارة شؤون الملك. فضلاً عن أنّ الهجاء المملوكي يخلو غالباً ما من سبّ الأعراض والعيوب الجسدية ويتمركز على العيوب الخلقية بلغة تسلّم من السبّ والإقذاع (فروخ، ١٩٨٩: ٣١٥). الجمالية الأخرى التي يميّز بها الهجاء المملوكي هي انطباعه بطابع السخرية والهزل، هذه السمة نجدها في ذلك العصر بكثرة كاثرة بينما لم يكن يحفل بها شعراء الهجاء في العصور المنصرمة إلّا نادراً مقارنة بالعصر المملوكي، والسبب في ذلك أنّ الشعراء في المقطع المملوكي كانوا يتجنّبون التصريح بالهجاء تفادياً للأخطار التي كانت تهدّد حياتهم إذا أثاروا غضب واستياء المهجّوِّ علماً بأنّ «الهجاء في ذلك العصر شهّر بالأمرء والحكام ومن تقلّدوا المناصب الرفيعة أكثر من غيرهم» (عبد اللطيف، ١٩٤٧: ٩٣).

خفقت جمالية الفكاهة من حدّة الهجاء ولذعته وحولته إلى آلية تعبيرية مرنة تتأقلم مع الغاية التي يرمي إليها الشاعر ألا وهي التعريض بالأمرء وأصحاب الحكم وكلّ من بيدهما زمة الأمور. إذا كان الهجاء الساخر في العصر العباسي مقتصرأ على ابن رومي والمتنبي فإنّه شاع في العصر المملوكي شيوعاً واسعاً بحيث لو تصفّحنا ديوان أيّ شاعر من شعراء هذا العصر لرأينا فيه نماذج متعدّدة من هذا الغرض الشعري. وممّا يسترعي انتباهنا في هذا الصدد أنّ الهجاء الساخر لقي إقبالاً واسعاً وترحيباً حاراً لدى أبناء البيئّة المملوكية وذلك لكثرة المشاكل والمحن في تلك البيئّة وانتشار الفقر والتّعاسة فيها. من حيث «إنّهم كانوا يجدون في الهجاء الساخر متفناً يكشف همومهم ويفرّج كربهم» (أميري، ٢٠١٥: ٣٦).

والميزة الأخرى التي تميّز بها الهجاء المملوكي هي أنّ الشعراء نحووا بالهجاء صوب العتاب يشكون فيه ما يعانونه في الساحة السياسية والاجتماعية من سياسات ظالمة ومسارات خاطئة (أميري، ٢٠١٢: ٣١). لقد أدّت هذه الميزات إلى رقي وازدهار الهجاء في النطاق المملوكي بشكل لا نجد له مثيلاً ولا نظيراً في كافة العصور العربيّة.

الهجاء المملوكي مضامينه وآلياته

تقريع الغزاة الأجنبي

سبق أن قلنا إنَّ العصر المملوكي شهد العديد من الحروب الضارية والمعارك الدامية بين المماليك والغزاة الأجنبي. كان المغول والصليبيون يهاجمون دولة المماليك دون هوادة فكان الغزاة التتر يطمحون إلى التوسيع من رقعة سلطانتهم بفتح البلدان الخاضعة لحكم المماليك. كما كان الصليبيون يحلمون باستعادة البيت المقدس وضمه إلى دولتهم تحقيقاً لآمالهم الدينية وطموحاتهم التاريخية وذلك «للمزمية التي يتمنَّع بها البيت المقدس لأبناء النصارى واليهود والمسلمين» (إبراهيم حسن، ١٩٤٨: ١٩٢). راح الشاعر المملوكي يصوِّر الحروب المستمرة التي يخوضها المماليك بريشته الشعرية أصدق تصوير. فها هو جمال الدين بن مطروح يهجو القائد المسيحي «فرنسيس» بسخرية لاذعة يحتقره بها ويزدرية. يخاطب الشاعر القائد الصليبي شاكرًا إياه لما قدّمه للمماليك من غنائم وأسرى ولجّره المسيحيين وراءه إلى ساحات القتل والهلاك وإيداعهم القبور حتّى كاد يمحو اليسوعيون من على وجه الأرض. ويرتاح بذلك المسيح ﷺ من شرورهم كما أشاد الشاعر بالسلطان المملوكي الذي فنّد مزاعم فرنسيس وخيّب آماله في الاستيلاء على دولة المماليك وتحقيق مآربه جرّاء ذلك:

مقالَ حَقٍّ مِنْ مِقْوَلِ فَصِيحِ	قَلَّ لِلْفَرَنْسِيْسِ إِذَا جِيَّتْهُ
مِنْ قَتْلِ عُبَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ	أَجْرَكَ اللَّهُ عَلَى مَا جُرَى
تَزَعُمُ أَنَّ الزَّمْرَةَ يَا طَبْلُ، رِيحِ	أَتَيْتَ مَصْرَ تَبْتَغِي مُلْكَهَا
بِسُوءِ أَفْعَالِكَ بَطْنِ الضَّرِيحِ	وَكُلُّ صَحَابِكَ أوردَتْهُم
إِلَّا قَتِيلًا أَوْ أُسِيرًا أَوْ جَرِيحِ	خَمْسُونَ أَلْفًا لَا يَبْرَى مِنْهُمْ
لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَسْتَرِيحِ	وَقَفَّكَ اللَّهُ لِأَمْثَالِهَا

(الكتبي، ١٩٧٤: ٢٣٢/١)

الصورة الساخرة التي رسمها الشاعر عن القائد الإفرنجي فرنسيس يبعث في نفس القارئ الشعور بالسخرية والدعابة: القائد الروميّ قاد خلفه جيشاً عظيماً كي يطيح به على الدولة المملوكية فإذا به يُسَلَّم ما جرّ معه من الجيش إلى السلطان المملوكي ويفرّ هارباً كأنه لم يأخذ معه الجيش إلّا ليقدّمه للمماليك كتحفة ثمينة وهدية كريمة.

التنديد بجور الحكام

أدان الشاعر المملوكي الظلم الذي كان يمارسه بعض الحكام ضد الرعية. تفتش الفساد وشيوع المظالم وكثرة الضرائب المفروضة على كاهل الشعب جعل الشاعر المملوكي يصوب سهام نقده وهجاءه نحو الحكام الظالمين وسياساتهم الظالمة مع الأخذ بنظر الاعتبار أن الدولة المملوكية كانت تفرض على كاهل الشعب ضرائب مثقلة يمول بها حروبها المكلفة. خذ نموذجاً رائعاً لابن الوردي حيث هجا الحاكم المملوكي الذي كان يلهج بذكر الله وتسبيحه. وفي الوقت ذاته يقارع أبناء الشعب فكأنه يذبح الناس باسم الله مثلما يفعله الجزار بالأضاحي.

قَد عَجِبْنَا لِأَمْرِ ظَلَمَ النَّاسَ وَسَبَّحَ
فَهُوَ كَالْجَزَارِ فِيهِمْ يَذْكُرُ اللَّهَ وَيَذْبَحُ

(ابن الوردي، ١٣٨٩: ١٧٤)

هجا الشاعر المملوكي «ابن النصيب» أحد الحكام هجواً ساخراً فإنه لم يكن صالحاً لتولي الوزارة لعدم كفاءته وجدارته للقيام بمهام هذا المنصب الخطير حيث لم يكن قادراً على النطق وإعطاء المشورة في شؤون البلاد وتدبير الأمور فإنه لو جلس في صدر المجلس لما حلّ مشكلة ولم يحرك ساكناً بل ظلّ ساكناً دون حراك كما لو كان طبلاً فارغاً لبوق الوزارة أو سطلاً وضع في أعلى المجلس للزينة دون أن يكون له بهاء وزينة للمجلس:

أَبْكُمْ قَلْدُوهُ أَمْرَ الرِّعَايَا وَهُوَ فِي حَلِيَةِ الْوِزَارَةِ عَطْلُ
فَهُوَ بِالْبُوقِ فِي الْوِزَارَةِ طَبْلُ وَهُوَ الدَّسْتُ حِينَ يَجْلِسُ سَطْلُ

(ابن كثير، ١٩٨٧: ١٣/١٧١)

الطعن في سلاطين الجور

كان السلاطين المماليك بأغلبهم محبوبين من قلوب الجماهير يلقون لديهم إكراماً وتعظيماً لا يستهان بهما والسبب في ذلك يعود إلى الخدمات الجليلة التي أسدوها للإسلام من حماية العلماء وإحياء الطقوس الدينية. الانتصارات الباهرة التي حققها المماليك في المعارك ضد الصليبيين والمغول جعلت منهم رمزاً للبطولة والشجاعة تغنى بها الشعراء في قصائدهم الحماسية. فضلاً عن ذلك أن معظم السلاطين المماليك كانوا يدافعون عن الدين الإسلام

١. الدست: المقصود به هنا صدر المجلس (كلمة فارسية). سطل: الدلو (كلمة فارسية).

وشعائره ويحرصون على نشر الثقافة الإسلامية وتطبيق أحكامه. كما أنهم كانوا يعملون على إزالة مظاهر الفسق والمجون وتعطيل حانات الخمر وبيوت الدعارة والبغاء ممّا سيّمدح الشعراء للسلطين والإشادة بجهدهم الحثيث وسعيهم البليغ لإشاعة التقاليد الدينية والحدّ من الممارسة للخلاعة والمجون في ربوع المجتمع. إلّا أنّ بعض السلطين أفرطوا وبالغوا في مكافحة المعاصي والذنوب فلم يكتفوا بالتصدّي للمحرمات الدينية بل ظلّوا يحرّمون الأمور المستباحة أيضاً مثلما أمر الملك مظفر بتحريم الأُنس بالحيوانات الأليفة والتلاعب معها كما كان من دأب بعض النّاس وشيئتهم في تلك الآونة. فانظر كيف انتقد الشاعر المملوكي الصلاح الدين الصفدي السلطان المملوكي الملك مظفر للتّعنت والتشدد الذي مارسه في هذا المجال إلى درجة جعل الموت عقوبة لمن يألف بالحمامة ويعبث بها:

أيّها العاقلُ اللّيبُ تفكّرْ في المليك المظفّر الضّرغام
كم تمادى في البغي والغّي حتّى كان لعب الحمام جدّ الحمام

(الصفدي، ١٩٦١: ٢/٤٠٧)

من الملاحظ أنّ لاستخدام الشاعر للكلمتين المتضادتين: «اللعب والجد» وإجراء الجناس المصحف بين: «الحمام والحمام» تأثيراً جمالياً راقياً في نفس المخاطب.

كما عبّر شاعر آخر السلطان المملوكي الظالم الذي كان يفتال الأمراء العدول لا لذنوب سوى لأنّهم نهضوا بأعباء الشعب وبذلوا ما في وسعهم لإشاعة العدل في ربوع الوطن وامحاء الظلم والطغيان ولكنّ السلطان المملوكي قتلهم غير مبالٍ أنّ قتل الأبرياء جريمة لن تغتفر:

حان الردى للمظفّر وفي التراب تعفّر
كم قد أباد أميراً على المعالي توفّر
وقاتل النفس ظلماً ذنوبه ما تكفّر

(ابن تغري بردي، ١٩٨٩: ٤/١١٣)

التّشهير بالقضاة الفسّاق

القضاء من أخطر المناصب التي تتطلّب المزيد من الكفاءات عند من يتولّاهكالعدالة والمنعة والعفة والطّهارة والتقى ولا يخفى أنّ ما لهذا المنصب الخطير من آثار سلبية أو إيجابية في حياة النّاس فكما أنّ للقاضي العادل دوراً بارزاً في نشر العدالة والفضيلة في أرجاء الوطن، أنّ للقاضي الجائر تأثيراً كبيراً في بثّ الشعور بالكبت والضياع والمهانة لدى أبناء الشعب. ثم أنّ

منصب القضاء يُعدّ مجالاً خصباً للقاضي الجشع الذي يحبّ جمع المال والمغنم حباً جماً دون أن يتورّع عن ممارسة الظلم والمكيدة والاحتتيال بحقوق البؤساء والمظلومين لبلوغ مآربه. الفساد الذي شهده الشاعر المملوكي في القضاة السوء أثار حفيظته فقام بالطعن فيهم والتشهير بهم. حتى بات الهجاء المملوكي بمثابة مرآة صافية تعكس السياسات المرهقة التي تكبّد الشعب مشقة وعناء. يصبّ الشاعر المملوكي على القضاة الظالمين كؤوس الغضب والسخط فيصنفهم بأسوء الصفات من الفساد والخيانة والظلم والجشع. ولا يريد الشاعر بإدانته لقضاة عصره التعبير عن سخطه وغيظه فحسب، بل ربّما يريد إزاحة الستار عمّا يجري على ساحة المجتمع المملوكي من ظلم القضاة وفسادهم أيضاً ما جعل الحياة للجماهير كابوساً مروّعاً كان من القضاة من ألهاه حطام الدنيا من القيام بواجبه والالتزام بالعدالة والحياد في أحكامه كان يمارس النفاق في سلوكه مع أبناء الشعب فكان يتظاهر بأنّه يصوم ويصليّ حالما يزوره الرعيّة لكنّه لم يلبث أن يرتكب الفواحش ما ظهر منها وما بطن إذا صار في الخلوة إذاً لم يكن صلاته ولا صيامه طلباً للثواب أو خلاصاً من العقاب. بل يخادع ذوي عقول ساذجة وأصحاب رؤى قاصرة بمظهره المغربي وتزهد المصطنع يرى الشاعر المملوكي البوصيري أنّ كلّ ما يؤدّيه ذلك القاضي المراوغ من قيام وقعود وصوم وصلاة يذهب سدىً إذ لا يتقبل الله إلّا من المتّقين. ثمّ اعتبر الانخداع بالزاهد المزور والاحتذاء بحذوه ضرباً من السذاجة والبلادة ولوناً من السلوك البهيمي. القاضي الذي هجا البوصيري نفاقه يدعى «العماد»:

بأنّنه اليوم صائمٌ	إنّ العماد أرايها
ولا يخافُ مأمّ	وليس يرجو ثواباً
أن لا صيامَ لظالمٍ	وليس يخفى عليه
له صيامُ البهائم	وصومنا في اتّباع

(البوصيري، ٢٠٠٧: ٢٠٩)

ربّما استدعى الشاعر في أبياته بعض الدلالات القرآنية ومن أبرزها آيات ترفض وتستنكر الأعمال العبادية التي لا يؤديها الإنسان تقرباً إلى الله زلفى بل يأتي بها رثاء وتزويراً كآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة/٢٧).

عرّض الشاعر المملوكي سيف الدين السامري بأحد القضاة أدّى سلوكه الرديء وأخلاقه السيئة إلى انتشار العهر وشيوع الرذائل بين أبناء المجتمع جهاراً. وفي دعوة الشاعر

المخاطبين إلى ممارسة الفواحش من القمار والزنا واللواط والإلحاد وغيرها من الموبقات علناً دونما خوف من العقوبة ايذاناً منه بأنه يسوغ ويحلّ اقتراب المحارم وارتكاب المعاصي لكل من ينوي ذلك مادام القضاة السوء يصدرن الفتيا بجوازها إزاء تلقي الرشاوى:

يا عدول الشّام قد سمحَ القيا ضي لأصحابه بتيّل الأمان
قامروا واشربوا وقودوا ولوطوا وأفسقوا وألحدوا إذن بأمان
وارفعوا عنكم التّستر بالفسد ق فلا حاجة إلى كتمان

(ابن تغري بردي، ١٩٨٩: ٤ / ١١٧)

السخرية التي تحيط بالأبيات السابقة أسقطت عليها جمالية فنيّة رائعة تأخذ بمجامع القلوب.

التعريض بكتّاب الدواوين

أسلفنا سابقاً أنّ الشاعر المملوكي نحا بالهجاء منحىً سياسياً أو اجتماعياً حيث أخذ يتعرّض للأشخاص والقضايا التي تمسّ بشكل أو بآخر الحياة السياسية أو الاجتماعية في ذلك الزمن. ولذلك يحمل الهجاء المملوكي طابعاً سياسياً أو اجتماعياً في تلك الآونة في ظلّ السياسات الظالمة التي يمارسها الملوك والأمراء. وتكاد تكون تلك السياسات المرهقة المرتكز الأساسي الذي يركز عليه الهجاء في العصر المملوكي.

كان لطبقة الكتّاب منصب هامّ ودور رئيسي في إرساء دعائم الحكم وتنفيذ منوّيات الحكام وممّا نستشفّ من الأهاجي المملوكية أنّ معظم الأساليب الظالمة التي كان يمارسها رجال الحكم أثقلت كاهل الشعب وعكرت عليهم صفوة الحياة فلا يمكن بهذا الصدد إغفال الدور الذي أدّاه كتّاب السلاطين في إرضاء مطامع أسيادهم. طعن الشاعر المملوكي الشهير البوصيري بالكتّاب السوء الذين يحرفون القوانين لإشباع غرائز الملوك وإرضاء مطامعهم ومن دفعهم الجشع وحبّ المال إلى تخطّي أحكام الدين وانتهاك حدود الشريعة كلّما اقتضت ذلك مصالح أسيادهم. فإنّهم استغلّوا أقالمهم ومناصبهم أداةً نهبوا بها أموال الرعية وممتلكاتها سرّاً وعلانية من المواشي والدواجن والأواني والمحاصيل الزراعية ما يكال منها أو يوزن:

انظُرْ بحقِّك في أمر الدواوين فالكلُّ قد غيَّروا وضع القوانين
الكاتبون وليسوا بالكرام فما منّهم على المال إنساناً بمأمون
نالوا مناصبَ في الدنيا وأخرجهم حُبُّ المناصبِ في الدنيا عن الدّين
وطاعنوا النَّاسَ بالأقلام واستلبوا منهم بكلِّ معلومٍ ومكنونٍ

ومِن مَواشٍ وأَطيَّارٍ وأَنيبَةٍ ومِن مَزروعٍ ومَكِيلٍ ومَوزونٍ
(البوصيري، ٢٠٠٧: ٢١١)

لقد رسم لنا الشاعر في المقطع الشعري السابق صورة ساخرة عن اللصوص تختلف عن الصورة المألوفة لدى القارئ فالذي نعهده عن اللص إنه شخص ملاحق له شعر أشعث مغبر وعليه ثياب رثّ بال وسخ يقطع الطرق على القوافل التجارية أو يقتحم البيوت على أصحابها يستلب أموالهم بممارسة العنف والقوة لكن اللصوص الذين يهجوهم الشاعر بنبرة هازئة لهم مظهر أنيق ورشيق يسرقون أموال الرعيّة كلّها في وضح النهار وعلى رؤوس الأشهاد لا بالسيف أو العنف بل بالقلم والسلوك اللبّيق الذي يبعث على الكرامة والاحتشام في نفوس الناس. هذه الازدواجية أو المفارقة من شأنها أن تكون مادة خصبة للتكيت والتندير الذي يعتبر بدوره من جماليات الهجاء في ذلك الحين.

الظلم والسلب الذي مارسه العمّال السوء ضدّ أبناء الشعب جعل البوصيري يستغيث بنبرة عالية بسُلطان مصر علّه ينقذ الشعب من طغيان العمّال وتطاولهم على الجماهير المنكوبة. يندّد شاعرنا بالممارسات التي سحق عمّال الحكومة أبناء الشعب المصري والتي تجاوزت القيم الخلقية بحذافيرها كما طالب البوصيري السلطان بالكف عن الحرب ضدّ المغول والصليبيين والإقدام على مقارعة العمّال الظالمين مهدداً إياه أنّ الانتصارات التي سجّلها سوف تذهب هباءً ريثما يتكالب العمّال على لحوم الشعب ويمتصّون دماءه دون رحمة ولا إشفاق فإنّ إنجازات السلطان المملوكي كان من شأنها أن تثلج صدور المصريين وتزرع الآمال في قلوبهم لولا الظروف الصعبة التي كانت ناجمة عن الجموح الطاغية للعمّال الظالمين والتي حولت حياة الشعب إلى جحيم هائل. وعد البوصيري السلطان أنّه إذا كبح جماح العمّال وحال دون أطماعهم التي لا تشبع لنال الجنّة خالداً في نعيمها:

فقلّ لسلطانِ مصرَ والشامِ معاً يا قاهراً غيرَ مخفيِّ البراهينِ
عمّالُها قد سَبّوهم من تَطَلُّبِهِم ما لا يكون بمفروضٍ ومَسَنونِ
وخلّ غزوَ هلاكِو والفُرسَ معاً وانهضْ بفرسانك الغُرّ الميامينِ
واغزَنْ عامِلَ أسوانَ تنالُ به جنّاتِ عدنٍ بإحسانٍ وتمكينِ
(البوصيري، ٢٠٠٧: ٢١٢)

الرسالة التي أوصلها الشاعر إلى قارئيه هي أنّ عمّال الحكومة الذين ضيقوا الخناق

على الشعب بأفعالهم المهينة هم أخطر بكثير من الغزاة الأجانب الذين كانت الحكومة في مواجهة معهم خارج حدود البلاد لذلك حث الشاعر السلطان المملوكي على وقف حروبه ضد الغزاة والهجوم على عامل أسوان بجيشه الأغر والميمون وعزله عن منصبه وخلع يده عن الشعب الأسواني صاغراً إذ أنه كلف الرعية بدفع ما ليس عليها واجباً ولا مندوباً.

لم يقف استياء البوصيري لموظفي الحكومة وأيديها عند هذا الحد إذ أنه ترجم الضغائن التي شحنت صدره إلى كلمات نارية تنقض على العمال الطاغين كالصاعقة.

اعتبر البوصيري في النموذج التالي عمال الحكم أسوأ الناس أخلاقاً وأرداهم تعاملاً مع الرعية كما أهدر دماءهم كمن يتهمون بالإلحاد الناجم عن الكذب والتضليل. بلغ امتعاض الشاعر أشده حيث يحذر أبناء المجتمع من الانخداع برجال الحكم ومظهرهم المخادع وكلماتهم المعسولة وأفعالهم المزورة مشجعاً السلطان على إنزال العقوبة عليهم تشفياً لخاطره وارتواءً لقلبه:

برئت من المستخدمين فخيرهم	لصاحبه أعدي وأدهى وأنكر
هدرتهم مثل الرماة لكذبهم	وعندي أن المرء بالكذب يهدر
فلا تدن منهم واحداً منك ساعة	ولوفاح من برديه مسك وعنبر
فبرد فؤادي بانتقامك منهم	فقد كان قلبي منه يتفطر

(البوصيري، ٢٠٠٧: ٢١٤)

تطرق البوصيري في النموذج التالي إلى التجربة التي مر بها مع عمال الحكومة في بلدة «بليس». وما شهد البوصيري في تلك المدينة من استلاب أموال الرعية والنيل من أعراضها وكرامتها جعله يوازن كل واحد من رجال الحكم بمئات من اللصوص ولذلك تراهم يلبسون دائماً ثياباً نُسجت من حرير ويشربون خمراً هي من أجود خمور الأندرين. الأحقاد التي خالجت نفس الشاعر ضد الحكام جعلته يصب شرارة غضبه وسخطه على رجال الحكم في طليعة هجاءه:

تُكَلِّتُ طوائفَ المُستخدِمينَا	فلم أرَ فيهم رجلاً أمينَا
فقد عاشرتهم ولبثتُ فيهم	مع التجريبِ مِن عمري سنينَا

حَوَتْ بلبيس طائفةً لصوصاً عدلتُ بواحدٍ منهم مئيناً^١
ولولا ذلك ما لبسوا حريراً ولا شربوا خموراً الأنديرياً^٢
(البوصيري، ٢٠٠٧: ٢١٤)

كما يبدو من الأبيات السابقة أن الشاعر تحدّث لنا عن الحياة المرفهة التي يتقلّب في أحضانها عمال الحكومة فإنهم يرتدون الديباج والحريير ويأكلون لحماً طرياً ويشربون أفضل الخمر التي جيء بها من بلاد الأندرين المشهور بجودة شرابها فلو قورن حياتهم المنعمة بحياة الشعب القاسية لانتضح أن بينهما هوة سحيقة وفجوة عميقة لا يسدها شيء والجمالية في هذا المقطف تكمن في المفارقة بين الملوك والرعية الناجمة عن غياب العدالة وانعدام المساواة بين أفراد المجتمع.

التشهير بالأطباء السوء

ثمّة في المجتمع المملوكي طائفة من الأطباء لا يملكون من مهنتها سوى اسمه إذ كانوا يقتلون الناس بدل العلاج لعدم جدارتهم وحذقهم في علاج المرضى. استقطبت ظاهرة الأطباء السوء اهتمام الشعراء شأن سائر الظواهر الاجتماعية فتحامل شعراء الهجاء على الأطباء العديمي الكفاءة والقليلي الخبرة يصبون عليهم كؤوس غضبهم واضعين إيّاهم موضع التنكيت والمهزلة. فهذا هو صفي الدين الحلّي يسخر بلهجة فكاهية من طبيب يدعى عيسى لكن أفعاله تخالف ما قام به عيسى روح الله ﷺ جملة وتفصيلاً فبينما كان النبي عيسى ﷺ يشفي الأسقام ويحيي الأموات بنفخة عيسوية شافية يدخل عيسى الطبيب الناس في القبور أفواجاً، هذا الطبيب هو أبعد ما يكون عن شفاء المرضى وعلاج الأسقام وأقرب ما يكون إلى سفك الدماء وخلع العذار. مثله مثل المنية التي تتخبّط خبطاً عشواء تُردّي من تُصيبه وتترك من تخطئه حتى يعيش ويبلغ من الكبر عتياً:

أرى فيك يا عيسى الطبيب فضيلةً هي الضدُّ من أفعالِ عيسى بنتِ مريم
وتحمي ولكن عن شفاءٍ وصحةٍ وتحقنُ إلّا للحياءِ وللدمِّ

١. بلبيس: مدينة قرب فسطاط في مصر.

٢. تأثر البوصيري في هذه الأبيات بمعلّقة لعمر بن كلثوم مطلعها:

ألا هبّي بصحنك فاصبّحينا ولا تبقّ خموري الأنديرينا

فما أنتَ إلَّا خبطَ عشواءَ مَنْ تُصِيبُ تُمِتُّه وَمَنْ تَخْطِي يُعَمِّرُ فِيهِمْ^١
(الحلي، ١٩٨٠: ٤٠٧)

الطعن بالفقهاء والزهاد

كان طبقة العلماء ورجال الدين تحظى في العصر المملوكي باحترام واحتشام بالغين. ذلك لأن أبناء المجتمع في تلك الفترة كانوا يدينون بالإسلام ويمارسون الطقوس الدينية ويحترمون الرموز والشخصيات التي تمثل الدين الإسلامي. فبطبيعة الحال بات العلماء ورجال الدين في تلك الحقبة موضع اهتمام المجتمع وعنايتهم. إلّا أنّ الناس بما فيهم الشعراء كانوا يبغضون من رجال الدين تلك الفئة القليلة التي ترغب في المادة والمنصب في جشع ونهم. الفئة التي تتظاهر بالزهد والقناعة لكنها ظلت تسعى لاهثة وراء شهواتها وتتستر بقناع الزهد والتشّف فليس غريباً أن يقوم الشاعر المملوكي بطعن هذه الفئة المراوغة التي تدعو نفسها عنوان الزهد والإعراض عن الدنيا كذباً وزوراً في حال أنّها لا تألو جهداً لامتلاك زخارف الدنيا الضماير الساذجة من أبناء الشعب بزهدهم المفتعل ومظهرهم الفاتن فيسعون في الأرض فساداً للوصول إلى ما تصبو إليه أنفسهم من المادة والمنصب فأصبحت هذه الطائفة المتكالبة على الدنيا وزينتها هدفاً للهجاء الساخر. انظر كيف يدعو الشاب الظريف المخاطبين إلى التحلي بالحذر والحيطه ليكونوا بمعزل من خداع تلك الطائفة الماكرة وشرورها. يرى الشاعر أنّها سوف تتبوء مقعدها من نار الجحيم:

الشيخُ قالوا قد غدا سالكاً فقلت للنَّارِ غدا سالكا
لا تغتزرَ بالزُّورِ مِنْ فِعْله كم فاتك تحسبُه ناسكاً

(الشاب الظريف، ١٩٩٥: ٢٤١)

كشف البوصيري بدوره عن وجوه الفقهاء المراوغين الذين كانوا يصنعون لأنفسهم سمعة واحترام باستخدامهم أساليب الدجل والتدليس والرتاء. أعطانا الشاعر صورة شفافة صادقة عن الزهاد الدجالين الذين خطف بريق الذهب أبصارهم. أخذ البوصيري يهجو فقهاء من فقهاء عصره يدعى «بهاء الدين» يفتصب أموال الناس بأسلوب الخداع فإنه كلما

١. أنّ الشاعر أخذ البيت الأخير من قصيدة قالها الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى والتي مطلعها:

رأيتُ المنايا خبطَ عشواءَ مَنْ تُصِيبُ تُمِتُّه وَمَنْ تَخْطِي يُعَمِّرُ فِيهِمْ

وقعت عيناه على الذهب استلب بريقه فؤاده فاستخدم كل ما بوسعه من خداع وتضليل لتملكه وحيازته. فإذا به يستمد من الزهد والتقشف كمادة دسمة للتلاعب بالعقول البسيطة والأفكار الضيقة حتى يأتمنونه على أموالهم لكنه سرعان ما يخونهم فيها مع أنه يعتبر نفسه معياراً للحق والعدالة ومثالاً للطهر والعفة والتقوى. وصل تعريض الشاعر بالمهجو قمته حينما يرثي حظ الفقراء السيئ لو ولى هذا الفقيه مهمة إطعامهم في شهر الصيام إذ أنه يسرق الأموال التي أوكل إليها لإشباع بطون الفقراء الجياع دونما ريب. والأسلوب الهزلي والفكاهي الذي وظفه شاعرنا زاد من جمالية هجائه وحسن موقعه في قلوب السامعين:

كَلَّمَا جَاءتِ الدَّنَانِيرُ يَنْقُـ	ضُ عَلَيْهَا الْبِهَاءُ كَالشَّيْطَانِ
خَدَعُونَا وَاللَّهِ مَمَّا يَمْدُو	نَ أَكْفَأَ كَكْفَأَةِ الْمِيْزَانِ
أَهْ وَأَضِيعَةَ الْمَسَاكِينِ إِنْ وُلِّيَ	أَمْرَ الطَّعَامِ فِي رَمَضَانَ

(البوصيري، ٢٠٠٧: ٢٥٩)

سلط الشاعر الأضواء في اللقطة السابقة على النفاق الذي يجري في عروق الزهاد المراوغين مجرى الدم فإنهم يقولون ما لا يفعلون يدعون الزهد والانقطاع عن الدنيا مع أنهم يكثرزون الذهب والفضة بنهم لا يشبع وظف الشاعر صورتين متناقضتين تجسدان البيئونة بين أقوالهم وأفعالهم فإنهم يتشددون بالعدالة ويدعون بأنهم رمز وعنوان للمساواة في حين أنهم يسرقون زكاة الفطرة التي فيها حق للسائل والمحروم. وهذه المفارقة الهازلة ألفت بظلالها الجمالية والبلاغية على النموذج الشعري السابق.

يبدو أن للبوصيري قلباً مشحوناً بالأحقاد والضغائن على الفقهاء المزورين إذ أنه أورد في أشعاره ما يدل على نفوره وتبرمه بهم إلا أنه لم يستخدم في أهاجيه كلمات بذئية وتعابير مستهجنة، فليس هجاءه مقذعاً في معظم الأحيان. الظلم والخيانة والتدليس من أبرز العيوب التي عير البوصيري الفقهاء بها. خذ الأبيات التالية نموذجاً حيث إنه يهجو فيها بعض الفقهاء اللاهثين وراء الدنيا لقلبهم الحقيقة وتفسيرهم الخاطئ للقرآن الكريم تفسيراً ينسجم مع جهودهم الرامية إلى ادخار المال وجني الثروة بممارسة الغش والتزوير والتظاهر بالورع والطهر والصلاح مع أنهم ملؤا بطونهم من الشبهة والحرام:

وَكَمْ جَعَلَ الْفَقِيهُ الْعَدْلَ ظَلْمًا	وَصَيَّرَ بَاطِلًا حَقًّا مُبِينًا
وَمَا أَحْشَى عَلَى أَمْوَالِ مِصْرَ	سِوَى مِمَّنْ مَعَشَرَ يَتَأَوَّلُونَا

وَأَنَّ الْكَانِزِينَ الْمَالَ مِنْهُمْ أَوْلَتْكَ لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ
تَوَرَّعَ مَعْشَرٌ مِنْهُمْ وَعُدُّوا مِنْ الزَّهَادِ وَالْمَتَوَرِّعِينَ
وَقِيلَ لَهُمْ دَعَاءٌ مُسْتَجَابٌ وَقَدْ مَلَأُوا مِنَ السُّحْتِ بَطُونًا

(البوصيري، ٢٠٠٧: ٢٥٣-٢٥٢)

الآبيات السابقة طافحة بالدلالات القرآنية بحيث يمكن القول إنها ترجمة حرفية للعديد من الآيات التي استهدفت اليهود والنصارى منددة بكفرهم وجدهم وقولهم بالتثليث. المعاني التي استقاها الشاعر من منهل القرآن العذب جعلت أشعاره في مستوى أرقى من ناحية جمالية الدلالة.

رسم بهاء زهير من شعراء الحقبة المملوكية بدوره صورة بغیضة عن الشيخ المزيّف الخرف الذي لا يكاد الشاعر ورفاقه يطيقون وجهه ومجلسه إذ أنه ينغص عيشهم كلما يزورهم بوجهه العابس والمتجهّم فيعكر عليهم صفو الحياة فإذا حضر مجلس الشاعر وأصدقائه لا يترك لهم مجالاً للحديث بثرثرته وغبائه فكأنه فدام جعل على أفواههم كيلاً يتمكنوا من التحدّث:

كَلَّمَا قَلْتُ اسْتَرْحَنَّا جَاءَنَا الشَّيْخُ الْإِمَامُ
فَاعْتَرَانَا كُلَّنَا مِنْهُ انْقَبَاضٌ وَاحْتِشَامُ
فَهُوَ فِي الْمَجَالِسِ قَدَمٌ وَلَنَّا فَهْوَ فِي فِدَامِ
وَعَلَى الْجَمَالَةِ فَالشَّيْءُ خُ تَقْيِيلٌ وَسَلَامُ

(ابن كثير، ١٩٨٧: ١٣ / ١١٩)

نال الشاعر المملوكي بهاء زهير من الزهاد المدلسين الذين صاغوا من الزهد الزائف والتشّف ستاراً يخفون وراءه وجوههم الحقيقية فتراهم يصلّون ويصومون في النهار ويتهجّدون في الليلا تقف أسنتهم عن ترديد الأوراد والأذكار ومع ذلك كله لا يمنعهم مانع ولا رادع من ابتزاز أموال بني آدم فكلما أتيح لهم فرصة استغلّوها لأكل الحرام كما تأكل الآبال الجياع الأعشاب النديّة أكلاً لماً:

كَمْ أَنْاسٍ أَظْهَرُوا الزَّهْدَ لَنَا فَتَجَافَوْا عَنِ حِلَالِ حَرَامِ
قَلَّلُوا الْأَكْلَ وَأَبَدُوا وَرَعاً وَاجْتَهَاداً فِي صِيَامِ وَقِيَامِ
ثُمَّ لَمَّا أَمَكْنَتْهُمْ فُرْصَةٌ أَكَلُوا أَكْلَ الْحَزَانِ فِي الظَّلَامِ

(ابن كثير، ١٩٨٧: ١٣ / ١٢١)

الازدواجية التي نلمسها في سلوك الزاهد المرثي أسقطت جمالية ساخرة على الصورة الشعرية تساعد القارئ على فهم أشمل وأعمق لشخصية المهجور المزيفة.

التعبير بالجالليات الدينية

ليس هجاء الأقليات الدينية حكراً على العصر المملوكي إلا أنه ارتفع في تلك الحقبة ارتفاعاً كبيراً وشاع شيوعاً واسعاً وذلك لاندلاع الحروب بين المماليك والصليبيين ما أجج لهيب الحماس وأذكى شرارة السخط والضجر في نفوس الشعراء ضد عبدة الصليب. الحلم باستعادة بيت المقدس حفز الأفرنج الصليبيين على الهجوم على بلاد المماليك والصراع معهم صراعاً عنيفاً مستميتاً ولكن المماليك الأشاوس صدوا هجماتهم وأحبطوا مؤامراتهم بحيث نالوا استحسان الشعراء وإعجابهم. يُعدّ من هذا النموذج ما قاله الشاعر المملوكي محي الدين بن عبد الظاهر في مدح السلطان الأشرف حيث أنزل على الصليبيين الذين سماهم بني الأصفر نقمة شرسة وصفعهم صفعاً قاضية:

يا بني الأصفر قد حلّ بكم نقمة الله التي لا تنفصل

هجا البوصيري اليهود والنصارى بنبرة ساخرة تزدري بهم وتحطّ من شأنهم مستخدماً فيها أسلوب الجدل والاحتجاج. أخذ البوصيري في النموذج الشعري التالي على اليهود والنصارى إنكارهم النبي محمداً ﷺ وعدم الاعتراف به كخاتم النبيين رغم أنّ التوراة والإنجيل بشراً بذلك. ثم عزا الشاعر تعنتهم وعداءهم للرسول الأعظم ﷺ إلى جهلهم وكفرهم بالله كما استنكر النصارى لتقليدهم اليهود في عدم الإيمان بالرسول ﷺ مشبهاً إياهم بالقابيل الذي قتل أخاه هابيل فظلّ حائراً وعاجزاً فيما يفعل بسوء أخيه حتى أرسل الله غراباً يحفر الأرض فاستلهم منه قابيل فصنع حفرة ووارى الرفات فيها. فأخذ الشاعر يلومهم لعدم اعترافهم بالرسول ﷺ مع أنّهم عرفوه كما كانوا يعرفون أبناءهم إشارة منه إلى ما جاء في التوراة والإنجيل من أوصافه بصورة دقيقة وشفافة مما لا يترك مجالاً للشك لدى القارئ المتأمل وختاماً هددهم بأنّ الخزي والعار والموت حنقاً وغيظاً ينتظرهم مثلما وجدناه في قابيل عندما رفض قربانه عند الله:

إنّ أنكرته النصارى واليهود على ما بينت منه توراة وإنجيل
فقد تكرّر منهم في جحودهم للكفر كفر وللتجهيل تجهيل
قلّ للنصارى الأولى ساءت مقالتهم فما لها غير محض الجهل تعليل

مِنَ الْيَهُودِ اسْتَفَدْتُمْ ذَا الْجُحُودِ كَمَا
أَمَا عَرَفْتُمْ نَبِيَّ اللَّهِ مَعْرِفَةً
موتوا بغیظٍ كما قد مات قبلكم
مِنَ الْغُرَابِ اسْتَفَادَ الدَّفْنَ قَابِيلُ
الأبناء لکنکم قوم مناکیل
قابیلُ إذ قَرَّبَ القربانَ هاییلُ

(البوصيري، ٢٠٠٧: ٢٩٦)

يُذَكِّرُ أَنَّ مَعْظَمَ الْمَعَانِي وَالْأَفْكَارِ الَّتِي تَحْتَوِيهَا الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ تَوَّاهَتْ مَسْتَلْهِمَةً مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الشَّاعِرَ نَهَلَ مِنَ مَنَهْلِ الْقُرْآنِ الْعَذْبِ وَارْتَوَى مِنْ مَعْنِيهِ الَّذِي لَا يَنْضَبُ. الْآيَاتُ الَّتِي اسْتَوْحَى مِنْهَا الشَّاعِرُ فِي شِعْرِهِ هِيَ:

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ...﴾ (المائدة / ٣١) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ...﴾ (البقرة / ١٤٦) ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ...﴾ (المائدة / ٢٧) وَلَا يَخْفَى أَثَرُ الدَّلَالَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي رَفْعِ مَسْتَوَى الْهَجَاءِ الْجَمَالِيِّ.

إِنَّ أَتْبَاعَ الدِّيَانَاتِ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ فِي رُؤْيَاةِ الْبُوصِيرِيِّ جَمَاعَةٌ تَعَوَّدَتْ عَلَى تَحْرِيفِ وَتَبْدِيلِ كِتَابِهَا السَّمَاوِيَّةِ وَعَادَةُ التَّحْرِيفِ مَتَوَغَّلَةٌ وَمَتَرَسِّخَةٌ فِي نَفْسِهَا فَإِنَّهَا لَنْ تَقْلَعُ عَنْهَا مَا دَامَتْ عَيُونُهَا كَلِيلَةً عَنِ رُؤْيَاةِ الْحَقِّ:

إِنَّ النَّصَارَى وَالْيَهُودَ مَعَاشِرٌ
لَوْ أَنَّ فِيهِمْ عَوْرًا عَنْ بَاطِلٍ
جُبِلُوا عَلَى التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ
أَبَقُوا عَلَى التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ

(البوصيري، ٢٠٠٧: ٢٦٥)

عَبَّرَ الْبُوصِيرِيُّ بِمَعْتَقِدِ التَّثْلِيثِ النَّاجِمِ عَنِ جَهْلِ وَنَزَقِ بَلْغَةِ عَتَابِيَّةٍ مَرَجِحًا الْإِيمَانَ بِالتَّوْحِيدِ عَلَى التَّثْلِيثِ:

وَمَا كَانَ مِنْ عَدِّ الثَّلَاثَةِ وَاحِدًا
بِأَعْلَمَ مَنِّي بِالحِسَابِ وَكُتُبَا

(البوصيري، ٢٠٠٧: ٢٧١)

كَمَا عَرَّضَ الْبُوصِيرِيُّ بِمَعَاقِرَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِلخَمْرِ مَسْتَغْرِبًا أَنْ يَصْرَحَ بِالْحَقِّ فَمَّ يَلَامِسُهُ شَرَابٌ مُسْكِرٌ تَعْلُوهُ الطَّحَالِبُ وَقَدْ حَرَّمَتْهُ الْأَدْيَانُ كُلُّهَا لِخَبْثِهِ وَرَجْسِهِ:

وَمَا الْحَقُّ فِي أَفْوَاهِ قَوْمٍ إِلَّا كَأَنَّ
هَا أَوَانٌ حَوَتْ مَاءً خَبِيثًا مُطْحَلِبًا

(البوصيري، ٢٠٠٧: ١٢١)

التعريض بالبخلاء

انتشرت ظاهرة البخل في المجتمع المملوكي حتى صار عنواناً للسلوك الاجتماعي السيئ ينم عن انحطاط الأخلاق وتدني القيم وغياب روح التكافل الاجتماعي والضمان المعيشي. البخل لو كان قد انحصر في عدد قليل من أبناء المجتمع لما هدد بالخطر ولكنه إذا شاعت نماذجه وتفشيت مظاهره حتى أصبح عادة اجتماعية منتشرة صار يهدد المجتمع بالتفكك والفوضى آنذاك. حسبما يبدو من الهجاء المملوكي أن الأغنياء وأصحاب الثراء في ذلك العصر تخلوا عن إمداد وإغاثة الفقراء المعوزين وأهملوا روح المواساة والعدالة تجاه طبقة الفقراء المسحوقة. الأوضاع الكارثية الناجمة عن البخل والإمساك جعلت الشعراء يدقون نواقيس الخطر ويحذرون من النتائج السيئة التي يفضي إليها بخل الأغنياء. من اللافت للنظر أن الصور والنماذج التي يرسمها شعراء الهجاء عن البخل في مجتمعهم باتت مصحوبة بجمالية الفكاهة والسخرية كما أشرنا إليه سابقاً. بحيث جاءت جمالية السخرية من أبرز الجماليات التي تعدّ معلماً بارزاً من معالم الهجاء المملوكي. في هذا السياق صوب بهاء زهير من أعلام شعراء الهجاء لذلك الحين نبال نقده إلى البخيل الذي هان عليه أن يمسّ بعرضه ولكن من المستحيل أن يُنال من خبزه إذاً رغيفه يظلّ تاماً غير منقوص منه طالما لم يتناول منه أو لم يتصدق به. من الغريب أن مائدته تُشبه السماء التي لا يعزب عنها هلالها أبداً.

فهلال رغيفته تشرق أبداً في سماء مائدته على مدى الشهور والأيام:

وَبَخِيلٍ يَنَالُ مِنْ عَرِضِهِ النَّا	سُ وَلَكِنْ رَغِيْفُهُ لَا يَنَالُ
كُلَّ يَوْمٍ يَأْتِي بِحَرْفٍ رَغِيْفٍ	كِهَلَالٍ لَمْ يَدْنُ مِنْهُ كِمَالُ
مُسْتَقَرٌّ فِي وَسْطِ سَفْرَتِهِ الزَّر	قَاءٍ لَا يَعْتَرِيْهِ مِنْهُ زَوَالُ
فَتَعَجَّبْتُ مِنْ سَمَاءٍ بِأَرْضٍ	كُلَّ يَوْمٍ يَلُوحُ فِيهِ هِلَالُ

(حلي، ١٩٩٧: ٥٣٦-٥٣٥)

الخيال الجامح ذهب بالشاعر المملوكي صفي الدين الحلي كلّ مذهب حيث تمكن من أن يقرب صورة البخل البشعة إلى مخيلة القارئ. جعل الشاعر المماثلة بين رغيف الخبز وهلال السماء أداة ملائمة ليبدع صورة فكاهية ممزوجة بالهجاء فبلغ السخرية في الصورة قمتها

١. المائدة: يبدو أنّها كلمة فارسية استخدمها الشاعر.

حيث يرى الشاعر أنّ هلال السّماء يطرد عليه النقصان ولكن لا يتعرض هلال الخبز عند البخل لأيّ نقصان أو تغير ما يدلّ على شدّة البخل والإمساك لدى البخل المهجّو.

النتائج

الأوضاع السياسية والاجتماعية التي مرّ بها العصر المملوكي أدت إلى الإثراء الجمالي للهجاء والارتقاء بمستواه في ذلك الطرف الزمني من أبرزها: أنّه دخل في معترك المجتمع واحتك بالقضايا العامة التي تهمّ الجميع ما أضفى عليه طابعاً شعبياً. انتقاد شعراء الهجاء لرجال الحكم وذوي مناصب عالية ممّن استجلبوا للبيئة المملوكية الفقر والعوز والتعاسة اتّجهبها هجاء المملوكي اتّجهاً سياسياً واجتماعياً. الهجاء المملوكي مصحوب في مجمله بشئ من الفكاهة والسخرية حتّى بات بإمكاننا أن نسمّيه الهجاء الساخر. قلّما نجد في الهجاء لتلك الحقبة لوناً فردياً إذ يدور غالباً ما حول قضايا عامّة تهمّ حياة المجتمع برمتها. يخلو الهجاء في البيئة المملوكية من كلمات بذيئة وتعابير ركيكة إذ قلّما نجده يكون هجاءً مقدماً فلا يتناول شاعر الهجاء أعراض المهجو وعيوبه الجسدية بل غالباً يستهدف إلى العيوب الخلقية. امتزج الهجاء بالشعر الشاكي حيث خفّف من حدّته ومنحه شيئاً من اللّيونة والرّقّة. زد على ذلك أنّ شعراء الهجاء اغترفوا من بحار القرآن الكريم الزاخرة بالعطاء وقطفوا من ثماره اليانعة. أفرزت هذه السمات والخصائص جماليات بيانية رائعة تجسّدت من خلال النماذج الشعرية التي أوردناها في هذا المقال. هجا الشعراء في الحقبة المملوكية نخبة المجتمع والشخصيات القيادية من السلاطين والأمراء وعمّال الحكم والقضاة السوء والغزاة الأجانب وأتباع الديانات اليهودية والمسيحية والزهاد المزورين والبخلاء. مهما يكن من أمر فإنّ الهجاء المملوكي بكلّ مقوماته الفنيّة وجمالياته الدلّالية كان نتاجاً للظروف السياسية والاجتماعية المخيمّة على العصر المملوكي تمّ دراستها في هذا البحث بشئ من التحليل والاستقصاء.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. إبراهيم حسن، حسن (١٩٤٨م). دراسات في تاريخ المماليك البحري. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
٢. إبراهيم يوسف، خالد (٢٠٠٣م). الشعر العربي أيام المماليك ومن عاصره من ذوي السلطان. بيروت: دار النهضة العربية.
٣. ابن الوردي، عمر (١٣٨٩ق). تنمة المختصر في أخبار البشر. تحقيق أحمد رفعت بدرابي، بيروت.
٤. ابن تغري بردي، يوسف (١٩٨٩م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. دمشق: دار إحياء التراث العربي.
٥. ابن كثير (١٩٨٧م). البداية والنهاية. ج١٣، ط٢، بيروت: دار الكتب العلمية.
٦. ابن منظور، ابوالفضل (١٩٧٥م). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
٧. أسعد طلس، محمد (١٩٥٧م). عصر الانحدار. بيروت: مكتبة الأندلس.
٨. _____ (١٣٩٣هـ). تاريخ الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني. ط٢، طهران: سمت.
٩. أميري، جهانگیر (٢٠١٢م). التحامق في الشعر المملوكي (دراسة وتحليل). مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، العدد ٢٢.
١٠. أميري، فرييا (١٣٨٨هـ). فنّ عتاب وشكوى در عصر مملوكي با تكيه بر مرثي ابن نباته. دانشگاه آزاد اسلامي واحد کرمانشاه.
١١. باشا، عمر موسى (١٩٨٩م). تاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي. دمشق: دار الفكر.
١٢. بكري، شيخ أمين (١٩٨٠م). مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني. ط٣، بيروت: دار الآفاق الجديدة.
١٣. البوصيري، محمد بن سعيد (٢٠٠٧م). ديوان الشعر. بيروت: دار المعرفة.
١٤. الحلبي، صفي الدين (١٩٩٧م). ديوان الشعر. شرحه عمر فاروق الطباع، بيروت: دار الأرقم.

١٥. الخفاجي، محمد عبد المنعم (١٩٩٢م). الآداب العربية في العصر العباسي الأول. بيروت: دار الجيل.
١٦. الركابي، جودت (١٩٩٦م). الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار. ط٢، دمشق: دار الفكر.
١٧. زغلول سلام، محمد (١٩٨٥م). الأدب في العصر المملوكي. القاهرة: منشأة المعارف.
١٨. زيدان، جرجي (١٩٨٣م). تاريخ آداب اللغة العربية. بيروت: دار مكتبة الحياة.
١٩. ستايش نيا، پروانه (١٣٨٩هـ). رويكردي جامعه شناختي بر شعر انحطاط. دانشگاه رازي.
٢٠. الشاب الظريف، محمد بن سليمان (١٩٩٥م). ديوان الشعر. شرحه صلاح الدين الهواري، بيروت: دار الكتاب العربي.
٢١. الصفدي، صلاح الدين (١٩٦١م). الواجف بالوفيات. تحقيق هملوت ريتز، بيروت.
٢٢. ضيف، شوقي (١٩٨٥م). تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: مصر والشام). ط٣، القاهرة: دار المعارف.
٢٣. _____ (١٩٩١م). تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول. ط٦، القاهرة: دار المعارف.
٢٤. عبداللطيف، حمزة (١٩٤٧م). الحركة الفكرية في مصر في العهدين الأيوبي والمملوكي الأول. القاهرة: دار الفكر.
٢٥. عطوان، حسن (١٩٩٧م). الشعراء من مخزومي الدولتين الأموية والعباسية. بيروت: دار الجيل.
٢٦. الفاخوري، حنا (١٩٨٦م). الجامع في تاريخ الأدب العربي. بيروت: دار الجيل.
٢٧. فروخ، عمر (١٩٨٩م). تاريخ الأدب العربي. ط٥، بيروت: دار العلم للملايين.
٢٨. الكتبي، ابن شاکر (١٩٧٤م). فوات الوفيات. تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر.
٢٩. كشاورز، حبيب (١٣٨٧هـ). هجاء وتطور آن در دوره جاهلي و صدر اسلام. دانشگاه تهران.
٣٠. مختار، أحمد (١٩٩١م). قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام. بيروت: دار النهضة العربية.
٣١. ناصيف، إميل (دون تا). أروع ما قيل في الهجاء. بيروت: دار الجيل.

٣٢. محمدي، درخشش (١٣٩١هـ). بررسی مضامین طنز در شعر شاعران برجسته عصر مملوکی. دانشگاه رازی.

٣٣. _____ (٢٠١٥م). التوظيف السياسي والاجتماعي للفكاهة في العصر المملوكي (دراسة وتحليل). مجلة إضاءات نقدية، السنة الخامسة، العدد السابع عشر.